أنـــتَ الـــذِي طُـــولُ بَـــقَـــاءٍ لَـــهُ
خَـيْـرٌ لِـنَـفْـسِـي مِـنْ بَـقَـائِـي لَـهَـا(١)

وإذا أتتك مذمتي من ناقص

يمدح القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد اللَّه بن الحسين الأنطاكي:

[الكامل]

لَـكِ يَـا مَـنَـازِلُ فِـي الْـقُـلُـوبِ مَـنَـازِلُ
أَقْـفَـرْتِ أَنْـتِ وَهُـنَّ مِـنْـكِ أَوَاهِـلُ(٢)
يَـعْـلَـمْـنَ ذَاكَ وَمَـا عَـلِـمْـتِ وَإِنَّـمَـا
أَوْلَاكُـمَـا يُـبْـكَـى عَـلَـيْـهِ الْـعَـاقِـلُ(٣)
وَأَنَـا الَّـذِي اجْـتَـلَـبَ الْـمَـنِـيَّـةَ طَـرْفُـهُ
فَـمَـنِ الْـمُـطَـالَـبُ وَالْـقَـتِـيـلُ الْـقَـاتِـلُ(٤)

= راضياً، ولم يكن مكوثه في قصر الأمير طويلاً، فقد لبّى طلبه دون تردّد وبأسرع ما يمكن، وكان يتوقّع أن يطول انتظاره، وهو يكره ذلك.

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن مكوثه إلى جانبه خير له وأحبّ إلى نفسه من استمرار بقائه لحصوله على ما أراد من قضاء حاجته.

(٢) يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. يُخاطب الشاعر الديار لقد خلت من ساكنيها، فارتحلوا وتركوها قفراء يُخيّم عليها الكآبة والحزن، وقد حلّت في القلوب، لأنها في الأصل مساكن الأحبَّة، فالقلوب مفعمة بالذكريات الحلوة، وفي إحدى زواياها ركن خاصّ بحبيبته لا تنفكّ متربّعة على عرشه.

(٣) يروى «ببكى» بالباء بدلاً من «يبكى» بالياء. يُردف الشاعر أن الديار لا تدري ما حلّ بها ولذا فإنها لا تبكي، بينما يعلم قلب الشاعر ما ألمّ وحلّ فيه، وهو الأوجب بالبكاء، رثاءً لحاله لمعاناته ألم الفراق.

(٤) اجتلب: أتى بالشيء. المنية: الموت. الطرْف، بسكون الراء: النظر. ينعى الشاعر على نفسه ما جرّته عليها، فقد أوقع نفسه في المعاطب من أجل نظرة أودت به إلى سوء العاقبة، ويسأل عن صاحب الجريرة ليطالب بدم المقتول، وهو من فعل بنفسه ما فعل.

تَـخْـلُـو الـدِّيَـارُ مِـنَ الـظِّـبَـاءِ وَعِـنْـدَهُ
مِـنْ كُـلِّ تَـابِـعَـةٍ خَـيَـالٌ خَـاذِلُ(١)
الـلَّاءِ أَفْـتَـكُـهَـا الْـجَـبَـانُ بِـمُـهْـجَـتِـي
وَأَحَـبُّـهَـا قُـرْبـاً إِلَـيَّ الْـبَـاخِـلُ(٢)
الـرَّامـيَـاتُ لَـنَـا وَهُـنَّ نَـوَافِـرٌ
وَالْـخَـاتِـلَاتُ لَـنَـا وَهُـنَّ غَـوَافِـلُ(٣)
كَـافَـأْنَـنَـا عَـنْ شِـبْـهِـهِـنَّ مِـنَ الْـمَـهَـا
فَـلَـهُـنَّ فِـي غَـيْـرِ الـتُّـرَابِ حَـبَـائِـلُ(٤)
مِـنْ طَـاعِـنِـي ثُـغَـرِ الـرِّجَـالِ جَـآذِرٌ
وَمِـنَ الـرِّمَـاحِ دَمَـالِـجٌ وَخَـلَاخِـلُ(٥)

(١) تخلو: تفرغ. الظباء، يقصد بهن النسوة. الخاذل من الظباء: الظبي الصغير الذي يتخلف عن القطيع ليرعى وحيداً. أوحشت تلك المرابع من ساكنيها، فلا نساء فيها أمثال الظباء جمالاً ورقّة وأناقة ولطفاً، ولكن قلب الشاعر تملأه ذكريات تتمثّل بفتاة في ريعان الصبا، فخيالاتها لا تزال تراود مخيّلته، وقد تخلّفت عن سربها فلم ترحل عن قلبه.

(٢) اللّاء: اللواتي. أفتكها: الأكثر فتكاً: أي قتلاً. الجبان: النافر من الرجال. يتابع الشاعر حديثه عن تلك التي شغلت عليه عقله وحواسه؛ إنها أكثر فتكاً من سائر النسوة، وأشدّهن حياءً تنفر من الرجال، لذا فهي بخيلة بالوصل، وهذا ما يشدّه إليها ويدفعه إلى التعلّق بها.

(٣) يتحدّث الشاعر عن دور النساء في حياة الرجال؛ إنهن يرمين شباكهن بلحاظ فاتكات فاتنات ساحرات، فيصطدن قلوب الرجال. سواء أردن أو لم يردن، وفي نفس الوقت هن ينفرن من عشّاقهن فيزدن في قلوبهم وهج الحبّ وضرامه، وهن لم يقصدن ذلك؛ وتلك هي مصيبة الرجال في الجميلات منهن.

(٤) المها: البقرات الوحشية. الحبائل. الواحدة حبالة: الشرك. إنها مبادلة ضيزى، فرغم الشبه بين النسوة والبقر الوحشي ذوات العيون الجميلة الواسعة السوداء، فقد تخلّت النسوة عن ما يُشبههن ليكنّ صيداً سهلاً للرجال الذين نشروا شباكهم للإيقاع بالبقرات الوحشية واصطيادها في غير التراب.

(٥) الثغر، الواحدة ثغرة: نقرة النحر. الجآذر، الواحد جؤذر: ولد البقرة الوحشية. =

وَلِـذَا ٱسْـمُ أغْـطِـيَـةِ الْـعُـيُـونِ جُـفُـونُـهَـا
مِـنْ أَنَّـهَـا عَـمَـلَ الـسُّـيُـوفِ عَـوَامِـلُ[١]
كَـمْ وَقْـفَـةٍ سَـجَـرَتْـكَ شَـوْقـاً بَـعْـدَمَـا
غَـرِيَ الـرَّقِـيـبُ بِـنَـا وَلَـجَّ الْـعَـاذِلُ[٢]
دونَ الـتَّـعَـانُـقِ نَـاحِـلَـيْـنِ كَـشَـكْـلَـتَـيْ
نَـصْـبٍ أَدَقَّـهُـمَـا وَضَـمَّ الـشَّـاكِـلُ[٣]
إنْـعَـمْ وَلَـذَّ فَـلِـلْأُمُـورِ أَوَاخِـرٌ
أَبَـداً إذَا كَـانَـتْ لَـهُـنَّ أَوَائِـلُ[٤]

= الدماليج، الواحد دملج: من الحلي يوضع في عضد المرأة. الخلاخل، الواحد خلخال: حلي تتجمّل به النسوة في أرجلهن. يذكر الشاعر مصدر سحر النسوة، فطعنهن إغراء العيون السوداء الجميلة المتّسعة؛ إنها رماح قاتلة تماماً كما يفعل الرجال بقتل بعضهم بعضاً. وسلاحهن فضلاً عن عيونهن حليهن في أيديهن وأرجلهن يزيدهن إغراءً وجمالاً.

(١) ورد البيت في: دلائل الإعجاز: ٦٦، أسرار البلاغة، للجرجاني: ١٦٢، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩. يرى الشاعر أن أغطية العيون سمّيت جفوناً لأنها تخبّئ أحداقاً قاتلات تفعل فعل السيوف التي تقتل عندما تجرّد من أغمادها وتعمل عملها.

(٢) سجرتك: ملأتك. غرى: أولع. لجّ: تمادى في الحجاج. يروى «شجرتك» بدلاً من «سجرتك»، أي حبستك عن الكلام. يُخاطب الشاعر نفسه في نجوى الذات، لقد كانت وقفات مع ذكرى الحبيب طويلة تثير في نفسه لوعة الشوق والحنين إلى حبيبته، فالرقيب يحول دون لقاء والعاذل دائم اللوم، يُكثر من مماحكاته وحواراته علّه ينجح ويردّ الشاعر إلى عقله ليقطع علاقته بحبيبته، إنه حبّ مكتوب له الفشل.

(٣) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٢٣٠، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. يتابع الشاعر حديثه عن لقاء تمّ بينه وبين حبيبته كشكلتي نصب، فقد وقف مقابل حبيبته، وكلاهما أضناه الشوق، ومع ذلك لم يكن عناق، فثمّة رقيب يرى ويُحصي الحركات والهمسات واللفتات، وعاذل يلوم ولا يشعر بما يشعران به من شدّة الصبابة والحبّ.

(٤) وبمسحة حزن مغلّف باللامبالاة، يُخاطب الشاعر نفسه لتنتهز فرصة الشباب ولتعبّ من متعه؛ فالحياة مهما امتدّت فهي قصيرة، وكلّ ما له بداية له نهاية، فلا بدّ منها.

مَـا دُمْـتَ مِـنْ أَرَبِ الْـحِـسَـانِ فَـإِنَّـمَـا
رَوْقُ الـشَّـبَـابِ عَـلَـيْـكَ ظِـلٌّ زَائِـلُ (١)
لِـلَّـهْـوِ آوِنَـةٌ تَـمُـرُّ كَـأَنَّـهَـا
قُـبَـلٌ يُـزَوَّدُهَـا حَـبِـيـبٌ رَاحِـلُ (٢)
جَـمَـحَ الـزَّمَـانُ فَـمَـا لَـذِيـذٌ خَـالِـصٌ
مِـمَّـا يَـشُـوبُ وَلَا سُـرُورٌ كَـامِـلُ (٣)
حَـتَّـى أَبُـو الْـفَـضْـلِ بْـنُ عَـبْـدِ ٱلـلَّـهِ رُؤْ
يَـتُـهُ الْـمُـنَـى وَهْـيَ الْـمَـقَـامُ الْـهَـائِـلُ (٤)
مَـمْـطُـورَةٌ طُـرُقِـي إِلَـيْـهَـا دُونَـهَـا
مِـنْ جـودِهِ فِـي كُـلِّ فَـجٍّ وَابِـلُ (٥)

(١) الأرب: الحاجة. روق الشباب: أفضله وأوله. ويُردف الشاعر متمّماً ما ألمح إليه أنه طالما يتمتّع بشبابه، وهي المرحلة الأعزّ على قلوب البشر، وطالما أن الحسان من النسوة يسعين وراءه فلا بدّ من انتهاز تلك الفرصة المؤاتية؛ فالشباب ظلّ سرعان ما ينزاح، فإذا بالمرء تحت سماء تسطع شمس خريف العمر تحرق كلّ منابت العمر.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. الآونة: اللحظة. القُبل، الواحدة قُبلة. يُردف الشاعر موضحاً فكرته بأن اللهو ساعاته معدودة تمرّ سِراعاً كأن المرء يقبّل حبيباً مودّعاً على وشك الرحيل؛ وكلّ شيء عزيز على قلب المرء يمضي كغمزة عين فيترك في النفس ذكريات حلوة وأسًى في الوقت نفسه لفواته، والحقيقة لا يدرك ما كان فيه حتى يفتقده فيتألّم لفقده. ولكن بعد فوات الأوان.

(٣) و (٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٢ ـ ١٥٣. جمح: خرج عن طوعه وغلب صاحبه. يشوب: يمازج ويُخالط. الهائل: العظيم. يمهّد الشاعر للانتقال من الغزل إلى المدح. إنها الحياة تسوق الزمان بعنف كما يحلو لها، لذا فلا شيء يدوم كما أنه لا يخلو من تكدر فلا يأتي خالصاً من كلّ شائبة، حتى السرور لا يخلو من منغّصات تُفقد المرء الإحساس بجماله، وفجأة يُطلّ في أفق حياة الشاعر أبو الفضل بن عبد اللّه، فرؤيته طالع خير؛ إنه ذو مقام هائل عظيم.

(٥) الفجّ: الطريق الواسع بين جبلين، الوابل: الماطر بغزارة. يُعلن الشاعر عن حقيقة علاقته بممدوحه، فقد واتاه خيره من عطاء قبل رؤيته والمثول بين يديه، فقد كانت طرقه إليه قد فاضت بمطر عطاياه الخيّرة، فإذا بجوده قد ملأ كلّ فجّ.

مَـحْـجُـوبَـةٌ بِـسُـرَادِقٍ مِـنْ هَـيْـبَـةٍ
تَـشْـنِـي الْأَزِمَّـةَ وَالْـمَـطِـيَّ ذَوَامِـلُ[١]
لِـلـشَّـمْـسِ فِـيـهِ وَلِـلـرِّيَـاحِ وَلِـلـسَّـحَـا
بِ وَلِـلـبِـحَـارِ وَلِـلأُسُـودِ شَـمَـائِـلُ[٢]
وَلَـدَيْـهِ مِـلْـعِـقْـيَـانِ وَالْأَذَبِ الْـمُـفَـا
دِ وَمِـلْـحَـيَـاةِ وَمِـلْـمَـمَـاتِ مَـنَـاهِـلُ[٣]
لَـوْ لَـمْ يَـهَـبْ لَـجَـبَ الْـوُفُـودِ حَـوَالَـهُ
لَـسَـرَى إِلَـيْـهِ قَـطَـا الْـفَـلَاةِ الـنَّـاهِـلُ[٤]
يَـدْرِي بِـمَـا بِـكَ قَـبْـلَ تُـظْـهِـرُهُ لَـهُ
مِـنْ ذِهْـنِـهِ وَيُـجِـيـبُ قَـبْـلَ تُـسَـائِـلُ[٥]

(١) محجوبة: محمية. السرادق: الخيمة. الأزمة، الواحد زمام: مقود الدابة. ذوامل: مسرعات، يصف الشاعر ما على ممدوحه من مهابة تحمل المرء على التردّد في حال مثوله بين يديه، فإذا ببصره يرتد حائراً إليه، حتى ما يُحسّ من المطايا المسرعات، ففي حال مفاجأتها به لارتدّت متقهقرة إلى الوراء خشية هيبته.

(٢) الشمائل، الواحدة شميلة: الأخلاق والمزايا. يرصف الشاعر الفضائل المحبّبة للممدوحين، إنه يُشارك الشمس دفأها وإشراقها وعطاءها والرياح والسحاب فيض جودهما، فهما تأتيان بالخير العميم فيشمل البشر والحيوان والنبات والبحار الرزق الواسع العظيم، والأسود شجاعتها وقوّتها ومهابتها وسؤددها.

(٣) العقيان: الذهب. المناهل، الواحد منهل: موارد المياه. يذكر الشاعر أن الوفود تأتي إلى ممدوحه تسترفد كلّ خير عميم من ذهب وما سواه ممَّا ينفع الناس، وهو يُغدق العطاء لأوليائه وأصحابه ويُمدّهم بحبّه أيضاً، بينما هو يُورد أعداءه موارد التهلكة لقوّته وشجاعته.

(٤) اللجب: الجلبة. الوفود: الآتون يطلبون عطاءً. سرى: مشى في الليل. القطا: ضرب من الطير رماديّ اللون من أنواع الحمائم. الفلاة: المفازة. الناهل: الوارد على الماء. يُنوّه الشاعر بكرم ممدوحه الذي يجعل الوفود تأتيه تترى من كلّ مكان لتنعم بخيره، ليلاً ونهاراً، ومنها أسراب القطا العطشى تتوجّه إليه علّها تنعم بما يشفي غليلها، ولكن ما يمنعها كثرة الوفود، ممَّا يحول دونها ودون الماء فلا تسري إليه في الليل.

(٥) يصف الشاعر ممدوحه بسرعة الخاطر، إنه لمَّاح يقرأ حاجة من يأتي إليه من عينيه =

وَتَــرَاهُ مُــعْــتَــرِضــاً لَــهَــا وَمُــوَلِّــيــاً
أَحْــدَاقُــنَــا وَتَــحَــارُ حِــيــنَ يُــقَــابِــلُ (١)
كَــلِــمَــاتُــهُ قُــضُــبٌ وَهُــنَّ فَــوَاصِــلُ
كُــلُّ الــضَّــرَائِــبِ تَــحْــتَــهُــنَّ مَــفَــاصِــلُ (٢)
هَــزَمَــتْ مَــكَــارِمُــهُ الْــمَــكَــارِمَ كُــلَّــهَــا
حَــتَّــى كَــأَنَّ الْــمَــكْــرُمَــاتِ قَــنَــابِــلُ (٣)
وَقَــتَــلْــنَ دَفْــراً وَالــدُّهَــيْــمَ فَــمَــا تُــرَى
أُمُّ الــدُّهَــيْــم وَأُمُّ دَفْــرٍ ثَــاكِــلُ (٤)
عَــلَّامَــةُ الْــعُــلَــمَــاءِ وَالــلُّــجُّ الَّــذِي
لَا يَــنْــتَــهِــي وَلِــكُــلِّ لُــجٍّ سَــاحِــلُ (٥)

= فيُبادر إلى مساعدته، كما أنه يطّلع بفراسته عمَّا يُمكن أن يُسأل عنه، فيُسارع إلى الإجابة.

(١) يصف الشاعر ممدوحه بقوّة شخصه وهيبته التي تجبر من أراد النظر والتمتّع بمرآة أن يحوّل نظره عنه مخافة ألّا يستطيع إدامة النظر إليه إلّا في حالة تحويلة نظره.

(٢) القضب، الواحد: قضيب: السيف. فواصل، الواحد فاصل: قاطع. الضرائب، الواحد ضريبة: المضروف بالسيف. المفاصل، الواحد مفصل: ملتقى العظمين، يمدح الشاعر ممدوحه بأنه أوتي جوامع الكلام وفصل الخطاب، فإذا ما تصدّى للكلام كان كلامه مختصراً واضحة معانيه ودلالاته أدّت الغاية منها دون زيادة أو نقصان، ولذا فقد كان بليغاً في سائر حالاته في السرور والغضب.

(٣) القنابل، الواحدة قنبلة: جماعة من الخيول ما بين الثلاثين إلى الأربعين يروى «قبائل» بدلاً من «قنابل» يمدح الشاعر ممدوحه بأنه متفوّق في كلّ ما تصدّى له من الفضائل، ففي ميدان المكارم فاقت مكارمه سائر مكارم الخلق أجمعين، حتى لقد بدت في هذه الحالة كأنها جيوش تترى متتابعة يستعرضها مسروراً بإنجازاتها أمام غيره، ولذا فجيشه يرفع لواء النصر في كلّ معاركه.

(٤) أم الدّهيم: المصيبة. الدفر: الخبث. الهابل: الثاكل الفاقدة لولدها. يمدح الشاعر ممدوحه بكرمه، فقد عمل على مساعدة الخلق للخلاص من المصائب والويلات التي تنزل في ديارهم فقضى على أسبابها، فإذا بدفر وأمّ الدهيم يبكيان قتلاهما، وقد ثكلتا بهم.

(٥) اللجّ: الماء الغامر. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه اجتمع لديه من العلم ما لم يجتمع =

لَـوْ طَـابَ مَـوْلِـدُ كُـلِّ حَـيٍّ مِـثْـلَـهُ
وَلَـدَ الـنِّـسَـاءُ وَمَـا لَـهُـنَّ قَـوَابِـلُ (١)
لَـوْ بَـانَ بِـالْـكَـرَمِ الْـجَـنِـيـنُ بَـيَـانَـهُ
لَـدَرَتْ بِـهِ ذَكَـرٌ أَمُ أُنْـثَـى الْـحَـامِـلُ (٢)
لِـيَـزِدْ بَـنُـو الْـحَـسَـنِ الـشِّـرَافُ تَـوَاضُـعـاً
هَـيْـهَـاتَ تُـكْـتَـمُ فِـي الـظَّـلَامِ مَـشَـاعِـلُ (٣)
جَـفَـخَـتْ وَهُـمْ لَا يَـجْـفَـخُـونَ بِـهَـا بِـهِـمْ
شِـيَـمٌ عَـلَـى الْـحَـسَـبِ الْأَغَـرِّ دَلَائِـلُ (٤)

= لغيره؛ فإليه يرجع العلماء في ما أشكل فهمه عليهم، كما أنه عميق الغور في جوده فلا يحدّه حدّ ولا يستطيع أن يغوص إلى أعماقه حتى أمهر الغواصين؛ فغناه وكرمه لا يُقاسان بمن في الكون من البشر.

(١) القوابل، الواحدة قابلة: التي تساعد المرأة الحامل على الولادة. يذكر الشاعر أن الممدوح ولد مطهراً مطيّباً، فلو أن القابلات أشرفن على استيلاد أولادهن على مثيله لما كانت الحوامل بحاجة إلى مساعدة القابلات.

(٢) الجنين: الولد في بطن أمه. درت: علمت. ومن مغالاة الشاعر أنه ولد كريماً مكرّماً، ولو علمت الأمهات حالة مولده، لكان باستطاعتهن أن يُميّزن بين الأنثى والذكر قبل ولادتهن؛ وهذا لم يكن ولن يكون.

(٣) المشاعل، الواحد مشعل: هو ما يضاء ليلاً ليهتدي السائرون في طريقهم. هيهات: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعد. يطلب الشاعر من بني الحسن التواضع، فهم شرفاء يرتبطون بشجرة ذكية زاكية؛ فالتكبّر لا يزيدهم شرفاً، شأنهم في ذلك شأن مشعل يتبيّن نوره في سواد الليل الحالك فيبدو أكثر ضياءً وتوهجاً كلّما اشتدّت الظلمة.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩. جفخت: تكبّرت. الشيم، الواحدة شيمة: الأخلاق الحسنة. الحسب: النسب الكريم. الأغر: السيد النبيل. يمدح الشاعر آل بيت الممدوح، إنهم من شجرة كريمة الأصل، ومن طبيعته العامّة إذا اغتنت فخرت بمالها على ذوي الأحساب والأصول الرفيعة، وهؤلاء لا يتكبّرون لماضيهم المجيد وأحسابهم الشامخة، فهم بعداء عن حالة كهذه، والممدوح سيد كريم عظيم.

مُـتَـشَـابِـهُـو هـو وَرَعِ الـنُّـفُـوسِ كَـبِـيـرُهُـمْ
وَصَـغِـيـرُهُـمْ عَـفُّ الْإِزَارِ حُـلَاحِـلُ[١]
يَـا افْـخَـرْ فَـإِنَّ الـنَّـاسَ فِـيـكَ ثَـلَاثَـةٌ
مُـسْـتَـعْـظِـمٌ أَوْ حَـاسِـدٌ أَوْ جَـاهِـلُ[٢]
وَلَـقَـدْ عَـلَـوْتَ فَـمَـا تُـبَـالِـي بَـعْـدَمَـا
عَـرَفُـوا: أَيَـحْـمَـدُ أَمْ يَـذُمُّ الْـقَـائِـلُ؟[٣]
أُثْـنِـي عَـلَـيْـكَ وَلَـوْ تَـشَـاءُ لَـقُـلْـتَ لِـي
قَـصَّـرْتَ فَـالإِمْـسَـاكُ عَـنِّـيَ نَـائِـلُ[٤]
لَا تَـجْـسُـرُ الْـفُـصَـحَـاءُ تُـنْـشِـدُ هٰـهُـنَـا
بَـيْـتـاً وَلٰـكِـنِّـي الْـهِـزَبْـرُ الْـبَـاسِـلُ[٥]
مَـا نَـالَ أَهْـلُ الْـجَـاهِـلِـيَّـةِ كُـلُّـهُـمْ
شِـعْـرِي وَلَا سَـمِـعَـتْ بِـسِـحْـرِي بَـابِـلُ[٦]

(١) الورع: التقوى. عفّ الإزار: كناية عن طهارته وبعده عن الفحشاء. الحلاحل: السيد العظيم. يُردف الشاعر مادحاً آل بيت ممدوحه، إنهم من بيت ربّى أبناءه على الورع والتقوى، وهم لا يُفحشون قولاً وعملاً، يتساوى في ذلك كبيرهم وصغيرهم، وهو يمتاز بأنه من السادات العظام.

(٢) يطلب الشاعر من ممدوحه أن يفخر بما عنده من مزايا وأخلاق رفيعة ويسمو على سواه، فمعظم هؤلاء من الناس، إما أن يرفع الممدوح فوق ما هو عليه إلى حدّ التقديس، وإما حاسد يودّ لو يكون على ما عليه من سؤدد، وهذا يتمنّى زوال النعم عن الممدوح، وإما جاهل فلا يُمكنه تقدير ما عليه الممدوح من فضائل وسمات.

(٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه طالباً منه ألّا يهتمّ لأقوال الناس، سواء أمدح أم تنقّصه القائلون؛ فالحمد لا يزيده لأنه فوق ما يقولون والذمّ لا ينزله عن مكانته التي يتبوّأها، فهو أعظم من أن تناله منقصة.

(٤) أثنى: مدح. النائل: العطاء. يُخاطب الشاعر ممدوحه، فقد مدحه وبذل أقصى ما يُمكنه من مدح، ومع ذلك فهو يعتذر بأنه قد يكون مقصّراً بمدحه، لذا فإنه يقبل منه أن يمسك عن لومه، وهذا يكفيه، فهو أفضل العطاء لديه.

(٥) و (٦) الهزبر: من أسماء الأسد، الباسل: الشديد. يفخر الشاعر بشاعريته، فلا يوجد =

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ
فَهْيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّيَ كَامِلُ (١)
مَنْ لِي بِفَهْمِ أُهَيْلِ عَصْرٍ يَدَّعِي
أَنْ يَحْسُبَ الْهِنْدِيَّ فِيهِمْ بَاقِلُ (٢)
وَأَمَا وَحَقِّكَ وَهْوَ غَايَةُ مُقْسِمٍ
لَلْحَقُّ أَنْتَ وَمَا سِوَاكَ الْبَاطِلُ (٣)
الطِّيبُ أَنْتَ إِذَا أَصَابَكَ طِيبُهُ
وَالْمَاءُ أَنْتَ إِذَا اغْتَسَلْتَ الْغَاسِلُ (٤)

= من يجرؤ على مدح الممدوح؛ إنه ذو هيبة تربك من يقف أمامه لينشده شعراً فضلاً عن علمه بجيده من رديئه، والشاعر يُنشد الجيد منه، إنه أسد يزمجر فيخيف الضعفاء من الشعراء، وهو شديد في موهبته، حتى إن الجاهليين كلّهم من الشعراء لم يصلوا إلى ما وصل إليه، والحقيقة أن ما وصل إلى المتنبي من تجربة ما سبقه من الشعر ساعده على الاستعانة بأقوالهم حتى برع في الشعر؛ حتى أن بابل موطن السحر لم تسمع بسحره.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٧. يردّ الشاعر على خصومه بأن ذكر نقائص الشاعر دلالة على أنه كامل، وفي ذلك كلام أنه لا يُوجد مخلوق تام إلّا رسول اللّه محمد بن عبد اللّه ﷺ، وما بقي من البشر إلّا وفيه ما فيه.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٢٠٦. إنها نظرة استعلاء وتكبّر من قبل المتنبي فقد جعل أبناء عصره جهلة، وهو القرن الرابع الهجري حيث اكتملت عناصر الحضارة العربية ونضج الشعر، وهو أحد هؤلاء الكبار في الشعر العربي؛ فأهل هذا العصر جهلة برأيه ولاحتقاره لهم يقول أهيل، ويتمثّل بباقل، وقد أخطأ، وما من امرئ إلاّ يخطئ. ألم يخطئ هو بهجائه حتى وصل إلى الإفحاش وسفّ؟!

(٣) يقسم الشاعر بأن ممدوحه يمثل الحقّ في عالم فسدت فيه المقاييس وفسد أهله، أما ما سواه فهو الباطل من كذب وظلم وتعدٍّ، والباطل مهزوم دائماً من قبل الحقّ مهما طال به الزمن.

(٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٦٦. الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩. يُخاطب الشاعر ممدوحه، منوّهاً بعبير فوحه، إنه طيب من نبع طيب، وكذلك فالماء الزلال الفرات الذي يسوغ في الحلق من غسول ممدوحه، لأنه يتطهّر حالما يلامس جسده في أي جارحة من جوارحه.

مَـا دَارَ فـي الْـحَـنَـكِ الـلِّـسَـانُ وَقَـلَّـبَـتْ
قَـلَـمـاً بِـأَحْـسَـنَ مِـنْ ثَـنَـاكَ أَنَـامِـلُ[١]

نسل من ليس له نسل

وقال يهجو قوماً توعّدوه:

[الطويل]

أَمَـاتَـكُـمُ مِـنْ قَـبْـلِ مَـوْتِـكُـمُ الْـجَـهْـلُ
وَجَـرَّكُـمُ مِـنْ خِـفَّـةٍ بِـكُـمُ الـنَّـمْـلُ[٢]
وُلَـيْـدَ أُبَـيِّ الـطَّـيِّـبِ الْـكَـلْـبِ مَـا لَـكُـمْ
فَـطِـنْـتُـمْ إِلَـى الـدَّعْـوَى وَمَـا لَـكُـمُ عَـقْـلُ[٣]
وَلَـوْ ضَـرَبَـتْـكُـمْ مَـنْـجَـنِـيـقِـي وَأَصْـلُـكُـمْ
قَـوِيٌّ لَـهَـدَّتْـكُـمْ فَـكَـيْـفَ وَلَا أَصْـلُ؟![٤]
وَلَـوْ كُـنْـتُـمُ مِـمَّـنْ يُـدَبِّـرُ أَمْـرَهُ
لَـمَـا كُـنْـتُـمُ نَـسْـلَ الَّـذِي مَـا لَـهُ نَـسْـلُ[٥]

---

(١) الثناء: المدح. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه أفضل البشر، فما قيل من شعر فيه فهو دون مزاياه فمواصفاته حميدة، وكذلك لم يكتب أحد عنه مهما كتب فإنه لن يعطيَه حقّه من الثناء، لأنه فوق ما يُكتب عنه.

(٢) يُخاطب الشاعر قوماً هاجياً لهم؛ إنهم جهلاء، وبجهلهم لجهلهم ماتوا، فهم أحياء جسدياً أموات عقلياً، ومن خفّة عقولهم فبإمكان النمل جرهم، فمن لا عقل له أحمق لا وزن له في عالم الأحياء.

(٣) وليد: تصغير للتحقير. يُخاطب هؤلاء القوم إنهم ينتسبون لأبي الكلب، هم صغار لا قيمة لهم، وهم ينتسبون إلى من لا قيمة له، كلب في حال التنكير لا حول له ولا قوّة، إنها دعوى لا معنى لها، ولو كنتم تمتلكون من العقول ذرّات لما انتسبتم إلى من لا يدعو إلى الفخر به، وقد فاتتكم الفطنة والرزانة.

(٤) المنجنيق: آلة حربية تستعمل لدكّ الحصون ترمى بواسطتها حجارة تُوجّه إلى القلاع والحصون. يُخاطب الشاعر هؤلاء القوم بأنهم لا أصل لهم، ولو كانوا ذوات أصل لوجّه إليهم شعر هجاء حطّم ما يحتمون به من أصل، فكيف وهم لا أصل لهم؟ إنهم خاسرون على كلّ حال.

(٥) يردف الشاعر هجاءه وأن القوم ينتسبون إلى من لا نسل له، فلم ينجب حتى لو كان =